



لا أحد – أعتقد – يماري في أن سوريا تعاني حالياً من أزمة مركبة عميقة. أزمة ؟ مأزق ؟ استعصار ؟ انسداد ؟ سُمّها ما شئت، فهناك مسألة مطروحة بأبعاد مختلفة، وتحث عن حلول. والمسألة السورية هنا تذكراً تاريخياً بتوارد الخواطر، بمفهوم المسألة الشرقية، ذلك المفهوم дипломاسي الدولي الذي كان يدل بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية وزوال الخلافة على عملية اقتسم ووراثة ممتلكات وأراضي تلك الإمبراطورية.

المفكر السوري صلاح الدين البيطار كان في حدود علمي، أول من استخدم مجدداً هذا التعبير لكن بمعنى مختلف ، وذلك في افتتاحية شهرية له في مجلة الإحياء العربي الصادرة في باريس عام ١٩٨٠ إفتتاحية بعنوان مثير : "في المسألة السورية ، سوريا مريضة مريضه، وتعيش محنـة وـمأسـة " . وكان ذلك في أعقاب مجازر حماه وتدمير وجسر الشغور التي ارتكبها النظام السوري آنذاك.

تعريف الأزمة (المأزق)

المفكر اليساري المعروف أنطونيو غرامشي عرّف المأزق (أو الأزمة) بأنه (نظام) قديم مات، وجديد لم يتمكن من أن يولـد بعد مستطرداً أنه في هذا الفاصل الزمني بين الحالتين، تتدافـع، لتعـيـفـ الفراغـ أنـواعـ مـخـتـلـفةـ منـ شـيـاطـينـ العنـفـ والـغـرـائـزـ والعـصـبـيـاتـ والمـصالـحـ والـظـواـهرـ المـرـضـيـةـ.

نحن في سوريا، حالياً، في هذا المنعطف تماماً، في هذه الزاوية الحرجـةـ. فالـعالـمـ الـقـدـيمـ تـارـيـخـاًـ بـعـقـلـيـتـهـ ومـمـارـسـاتـهـ مـاتـ وـشـبـعـ موـتاًـ: نظامـ الحـزـبـ الـواـحـدـ وـالـعـاـلـةـ الـواـحـدـةـ وـالـشـخـصـ الـواـحـدـ. وما انفلـاتـ الغـرـائـزـ الدـموـيـ منـ طـرـفـ النـظـامـ الـقـدـيمـ إـلـاـ عـبـارـةـ عنـ تـجـلـيـاتـ دـخـولـهـ فيـ طـوـرـ النـزـعـ الـأـخـيـرـ. أماـ لـمـاـذـاـ الجـدـيدـ السـوـرـيـ لمـ يـسـطـعـ أنـ يولـدـ بـعـدـ، رـغـمـ انـقـضـاءـ أـرـبـعـ سـنـوـاتـ عـلـىـ الـانتـفـاضـةـ الـشـعـبـيـةـ، الـمـفـتوـحةـ عـلـىـ ثـوـرـةـ وـطـنـيـهـ حـقـيقـيـهـ فيـ سـوـرـيـاـ، وـلـاحـقاًـ فيـ الشـرـقـ بـرـمـتهـ، فـهـنـاـ تـكـمـنـ الـمـسـأـلـةـ.

الأبعاد الثلاثة الرئيسية للأزمة السورية:

للأزمة السورية تاريخياً وحالياً، أبعاد كثيرة، رئيسية وثانوية ، منها على سبيل المثال ما يسميه البعض "المرض السوري " والمرض السوري هذا، كما هو متعارف عليه هو الفردية الزائدـةـ. السوري يعتقد أنه لوـحـدهـ يـسـتـطـعـ أنـ يـحلـ مشـاـكـلـ الـعـالـمـ كـلـهـ. لقدـ كانـ هـنـاكـ غـيـابـ مـلـحوـظـ لـروحـ الـعـلـمـ الـجـمـاعـيـ الـمـنـظـمـ وـالـعـقـلـانـيـ، رـوحـ الـفـرـيقـ الـمـتـضـامـنـ الـواـحـدـ، الرـوحـ الـمـؤـسـسـاتـيـةـ. وكـثـيـرونـ مـازـالـواـ يـذـكـرـونـ عـبـارـةـ الرـئـيـسـ السـوـرـيـ شـكـريـ القـوتـيـ، بـعـدـ أـنـ وـقـعـ مـيـثـاقـ الـوـحـدةـ معـ الرـئـيـسـ جـمالـ عبدـالـناـصـرـ حينـ قـالـ لـهـ سـلـمـتـكـ ثـلـاثـةـ مـلـاـيـنـ زـعـيمـ، لـكـ هـذـهـ الدـعـابـةـ وـالـتـيـ مـاـ زـالـ السـوـرـيـوـنـ يـتـنـدـرـونـ بـهـاـ حـتـىـ الـآنـ، تـحـولـتـ الـيـوـمـ مـعـ الـأـسـفـ إـلـيـ ماـ يـشـبـهـ الـمـأـسـةـ، مـأـسـةـ فـيـ السـاحـةـ السـيـاسـيـةـ وـفـيـ السـاحـةـ الـعـسـكـرـيـةـ، وـفـيـ السـاحـةـ الـفـكـرـيـةـ. لكنـ هـذـاـ الـأـمـرـ لـيـسـ اـسـتـثنـاءـ سـوـرـيـاـ خـارـقاـ. فـلـكـ شـعـبـ فـيـ الـعـالـمـ تـقـرـيـباـ "ـمـرـضـهـ"ـ أـوـ "ـآـفـتـهـ الـخـاصـةـ"ـ الـمـخـلـتـلـفـةـ عـنـ آـفـاتـ

الشعوب الأخرى . عضو الأكاديمية الفرنسية الوزير الديغولي السابق "آلان بيرفيت" Alain Peyrifitte كتبه واحدٌ بعنوان "المرض الفرنسي" le mal français " والذى كان محاولة منه للبحث عن جواب على السؤال الذى يطرحه كثيرون لماذا هذا الشعب الحي الكريم الموهوب يقدم غالباً عن نفسه مشهد انقساماته وعجزه؟ . دائمًا في هذا الإطار هنالك من يتحدث عن أمراض أخرى : التسرع ، العاطفية الزائدة ، غياب العقلانية... إلخ. وهذا شيء يشترك به الشعب السوري مع الشعوب الشرقية كافة.

بعد هذا الاستعراض السريع، سنتوقف الآن عندما نعتبره الأبعاد الرئيسية للأزمة السورية.

١- الأزمة الكيانية : دكتاتورية الجغرافيا وخبارات التاريخ الديمقراطي

كثير من المستشرقين والمؤرخين اعتبروا أن سوريا تعاني من نوع من القلق الكياني وعدم الاستقرار، فقد تم إنشاؤها بحدودها الحالية بشكل مصطنع وفق خرائط رسمها الإنكليزي سايكس والفرنسي بيكيو عام ١٩١٦ . وفي وقت لاحق تم عام ١٩٣٥ اقطاع لواء إسكندرون منها في الشمال وإعطائه من قبل سلطات الانتداب الفرنسي آنذاك هدية لتركيا الجديدة (تركيا كمال أتاتورك) لحثها على عدم الاشتراك مع الخصوم في أية حرب قادمة. وفي عام ١٩٦٧ قامت إسرائيل باحتلال الجولان السوري في الجنوب وضمه لها بالقوة. حتى أن سوريا الصغرى لم تسلم أحياناً من التقسيع أو التقسيم فالكل يذكر محاولة سلطات الانتداب الفرنسي في العشرينات والثلاثينيات من القرن الماضي تقسيم سوريا إلى أربع دوبلات.

لكن الحركة الوطنية آنذاك أعادت بلورة الوحدة السورية وإنجاز الاستقلال. في المقابل يرى كثيرون أن سوريا الحقيقة ليست هي سوريا الحالية. إنها وكما يقول مثلاً الزعيم السوري أنطون سعادة أن سوريا هي سوريا الكبرى بحدودها الطبيعية : جبال طوروس من الشمال ، والبحر الميت من الجنوب التي تضم سوريا ولبنان والأردن وفلسطين. حتى أن آخرين يرون أن سوريا كانت طوال تاريخها الحديث في حالة نوسان بين التمدد والانعزal، بين التقوّع على ذاتها والتطلع عبر حدودها الحالية إلى آفاق أبعد ولم تكن الوحدة مع مصر في الخمسينات في رأيهما، إلا ضررًا من الهروب إلى الأمام وتعبيراً عن ذلك القلق الكياني.

وما الأزمات السياسية وعدم الاستقرار الذي تمثل بالانقلابات العسكرية المتواترة منذ الاستقلال وحتى عام ١٩٧٠ ما هو في أحد أبعاده الرئيسية إلا أحد تجليات هذه الأزمة الكيانية أو البنوية.

في إطلاة له نادره على الشأن السوري بعد اندلاع الثورة في سوريا، تحدث راسم الخرائط السياسية الأشهر هنري كيسنجر عن هذه المسألة بالتحديد. ففي محاضرة له في كلية "فوردسكول" بواشنطن في يوليو تموز عام ٢٠١٣ قال بالحرف الواحد : "إن سوريا ليست دولة تاريخية، فقد تم إنشاؤها بشكلها الحالي عام ١٩٢٠ وأخذت هذا الشكل لتسهيل ضبطها من قبل فرنسا الحاصلة حديثاً على صك انتداب من الأمم المتحدة، وبسبب كونها دولة لا تاريخية فقد تمت صياغة سوريا كوحدة وطنية اصطناعية. كلام فيه بالطبع جزء بسيط من الحقيقة لكن يستخدمه ثعلب الدبلوماسية ليصل إلى شيء آخر حيث يختتم قائلاً :

هناك ثلاثة نتائج ممكنة للنزاع الحالي :

١- انتصار الأسد.

٢- انتصار خصمه.

٣- أو وضعية تقبل فيها مختلف الجنسيات (والتعبير له) التعايش معًا في مناطق مستقلة بشكل لا تتمكن معه من ممارسة القمع ضد بعضها البعض، قبل أن يختتم بالقول إنها الوضعية التي أفضل رؤيتها في المستقبل".

وهكذا إذن عبر الاستراتيجي التسعياني فوق تاريخ سوري عريق وطويل قبل سنة ١٩٢٠ متجاهلاً أن سوريا هذهأخذت اسمها على الأقل منذ أربعة آلاف سنة وإن تغيرت الحدود توسيعت تارة، وضاقت تارة أخرى، وأعطت ثلاثة أباطره لروما قبل

الميلاد، ولم يفطن في غمرة كرهه للعرب أنه إذا كانت هنالك دولة لا تاريخية (اصطناعية) فهي بالتحديد دولته بالذات الولايات المتحدة الأمريكية، فالكل يعلم أن عمرها السياسي بالكاد يناهز ٣٠٠ سنة وشعبها هو خليط من الأفارقة والطليان وإنكلترا والإسبان وبقايا الهنود الحمر.

ولكن حول هذه النقطة يمكن القول أخيراً أنه ليس هنالك دولة حديثة في العالم إلا وعانت مما عانت منه سوريا. والذي ينظر إلى التاريخ الألماني على سبيل المثال (والأوريبي عموماً) يرى بوضوح أن ما يسميه البعض أزمة كيانية، كانت تضرب ألمانيا كمعظم الدول الأوروبية خلال قرون ونجمت عنها حروب ، إلى أن تم التوصل إلى سلام وحدود نهائية في إطار اتفاقية ويستفاليا الشهيرة.

ومع ذلك عرفت القارة الأوروبية بعدها حربين عالميين بالإضافة لحروب أخرى محدودة كانت في أحد أبعادها، تعبيراً عن أزمة كيانية، إلى أن تم أخيراً حل هذه المسألة بشكل تاريخي عقلاً عصري في إطار الاتحاد الأوروبي، فإذا كانت الجغرافيا تفرض نفسها كدكتاتورية، فإن الفعل الإنساني يستطيع أن يعدلها، يوسعها، يضيقها، يصغرها، يكبرها، وهذا ما أسمينا به ديكاتورية الجغرافيا وخيارات التاريخ الديمقراطي.

٢- أزمة الهوية:

في غمرة الأحداث الدامية التي تهز سوريا، أطل عدد من الكتاب والمفكرين ليطرحوا سؤلاً إشكالياً : من نحن ؟ ماهي هويتنا ؟ سوريون عرب؟ مسلمون ؟ (سنة أم شيعة) مسيحيون. نحن من ؟ ونحن ماذا؟

هذا السؤال طرح بعمق في تونس بعد انتصار الثورة وحصل حوله نقاش وطني عام وقد تم التوصل في نهايته لشبه إجماع بين كل التيارات السياسية على أن هوية تونس هي هوية عربية إسلامية. وإذا كان صحيحاً هذا في تونس ذات التركيب المجتمعي المتباين إلى حد بعيد، فهل سيكون بالإمكان تعميم ذلك على سوريا المذهلة التنوع ؟ سؤال مفتوح ينتظر الجواب.

٣- أزمة القيادة:

إذا كان البعدان الأولان في الأزمة السورية ذوا طابع تاريخي سكوني ستاتيكي إلى حد ، ما فإن بعداً ثالثاً يحمل طابعاً متغيراً ديناميكياً، هواليوم العنصر الأبرز في الأزمة السورية الحالية أو بالأحرى في المأساة السورية حالياً. إنها أزمة القيادة .

من الواضحاليوم لكل ذي عينين أن سوريا عموماً والمعارضة والثورة بشكل خاص، تعاني من أزمة قيادة . فقد رحل منذ زمن طويل كل آباء الاستقلال وكذلك الجيل الوطني الأول من السياسيين ورجال الدولة الحقيقيين .

وحين انفجرت الأحداث في مارس آذار ٢٠١١ لم يكن قد بقي في الساحة من السياسيين الكبار إلا ما يعد على أصابع اليد الواحدة، وفي غمرة الأحداث الدرامية والمتسرعة، بدأ يتقاذف إلى مقدمة المسرح كثير من المتسلين والانتهزيين والكاراكوزات الإعلامية إضافة لبعض كبار قدماء المعارضين الصادقين . لتأمل المشهد بشيء من التفصيل : لقد بدأ بشكل جلي أن أكثر القيادات القديمة تبدواليوم متعبه فكريأً وسياسياً ونضالياً، وأكثر القيادات الجديدة أو التي قدمت نفسها كذلك تلك التي تصدرت المشهد الإعلامي السياسي أظهرت أنها مراهقة.

وبقي عدد قليل من القيادات الوسط التي لم تتمكن حتى الآن لسوء الحظ من أن تشكل قيادة جماعية. وأعتقد أن المراهنة العقلانية الرئيسية هي على هذه القيادات الوسط بالتحديد التي لها تاريخ طويل في العمل السياسي وتاريخ مستمر في المعارضة الوطنيةمنذ عقود. وكان هنالك غياب ملحوظ كذلك لما يسميه المفكر السوري المعروف ياسين الحافظ الوعي المطابق(المطابق للواقع) . بعض الذين قفزوا في غفلة من الزمان إلى مقدمة المسرح الإعلامي السياسي يتحدثون عن حل سياسي مع النظام منطلقين من القول أنه انتصر أن الحل العسكري مستحيل، ولكن هل الحل السياسي في ظل المعطيات الحالية ممكن أو إنه أيضاً شبه مستحيل، ولن يكون في حال حدوثه، في ظل الأوضاع الحالية سوى هدنة بين حربين .

الحل الوحيد الممكن في سوريا اليوم هو حل عسكري- سياسي، عسكري لتغيير موازين القوى لصالح الثورة والشعب والتغيير الوطني، وسياسي للوصول إلى وفاق وطني . وإن أي تسوية أى سلام مع النظام الأسدى في ظل موازين القوى الحالية ما هو إلا تعبير ملطف عن الاستسلام.

إن القائد الحقيقي في الظروف الدرامية الحالية التي تمر بها سوريا لا بد أن يتميز بثلاث صفات رئيسية، صفات متلازمة، لا انفصام بينها ولا انفصال : (الكفاءة+المناقبية+العمل بتفان وإخلاص). لأنه من الممكن أن يكون السياسي أو القائد كفؤاً وتنقصه الأخلاق. ومن الممكن أن يكون أخلاقياً وتنقصه الكفاءة، ومن الممكن كذلك أن يكون كفؤاً. وأخلاقياً ولكن خاملاً وكسولاً لا يعمل .

ويبقى رأس النبع الإيمان العميق بقضية الشعب السوري ، قضية الحرية والعدالة والتغيير، والثبات، أمام الصعوبات والانتكاسات ومعاودة السير على طريق الآلام...طريق الحرية والكرامة.

على الذي يريد أن يتصدى بصدق ووطنية للقيادة اليساسية في سوريا في هذه المرحلة أن يعلم أنه يخوض معركة موت أو حياة، وأن عليه أن يتحلى بروح الفدائى الذي يعي أنه معرض للموت في أية لحظة، وهو مستعد مادياً وفكرياً ونفسياً وروحياً لذلك.

عبارة عليه أن يمتلك : ”إيمان الأنبياء ...وعوسي العلماء“ .

كلنا شركاء

المصادر: